رابعة العدوية

عذراء البصرة البتول

معلمة العلماء

شهيدة الحب الإلهى

رابعة بنت إسماعيل العدوى

* على طريق الزهد

بدت على رابعة ـ سميت رابعة لأنها ولدت بعد ثلاث بنات لإسماعيل العدوى ـ علامات النجابة ومخايل الذكاء فى طفولتها الطاهرة الناضرة كما بدت عليها أمارات التقوى فى سن اللهو واللعب

فذات يوم جلس إسماعيل العدوى بين بناته الأربع وامرأته ليتناولوا طعامهم ، ولكن رابعة لم تمتد يدها نحو الطعام ولم ترفع الى فيها لقمة ، فسألها أبوها :

ـ لماذا لا تأكلين يا رابعة ؟

قالت رابعة :

ـ يا أبت لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنى إياه

فكف إسمياعيل العدوى يده وكأن عبارة ابنته شلت يده وفكيه وتساءل :

ـ أرأيت يا رابعة إن لم أجد إلا حراما ؟

فقالت رابعة العدوية :

ـ نصبر يا أبت فى الدنيا على الجوع خيرا من أن نصبر فى الآخرة على النار كانت هذه العبارة إشارة البدء فى السير على طريق مضىء بالزهد والورع والتقوى

* الابتلاء

كان أول ابتلاء رابعة بنت إسماعيل أن توفى والدها

ثم لحقت به أمها فامتلأت عينا رابعة بدمع اليتم

فراحت رابعة تصلى وتدعو لأبويها بالمغفرة لكى يظل عملهام الصالح ممتداً موصولا فرفعه أنسها بالقرب من القريب المجيب من وحشة اليتم إلى مرتبة النعيم الروحى فزادها صفاء وجلاء وصقلا لذاتها

فامتلأ قلبها بحب الله تبارك وتعالى

وحفظت رابعة القرآن العظيم قبل أن تبلغ العاشرة

كما حفظت عشرات الأحاديث النبوية عن ثقاة الرواة

وكانت رابعة أول امرأة هتفت بحب الله عز وجل

وعزمت على أن تنقطع عن الدنيا زهدا فيها وتتفرغ لعبادة حبيبها الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا يدخل قلبها حب سواه

وجاء الابتلاء الثانى وكان عاصفا جامحا عنيفا فقد أصاب البصرة القحط والجدب واقتحم الجوع كل بيت إلا قصور الأمراء فنشط وسط بحر هذه المحنة تجار الرقيق وتعاونوا مع اللصوص وقطاع الطرق على بيع الصغار والأولاد الذين هم دون سن البلوغ فوقعت رابعة فى أسر العبودية وانتقلت من حياة الحرية إلى قيود الرق والعبودية فعملت خادمًا فى بيت أحد التجار وكان رجلا فظا غليظ القلب

وعاشت رابعة العدوية فى بيت سيدها كأى مؤمنة بين الخوف والرجاء ، ولكن كفة الخوف كانت ترجح كفة الرجاء لشدة قربها من القريب السميع البصير فحبيب الرحمن ﷺ يقول :

ـ إنى لأقربكم إلى الله وأشدكم منه خوفا

وراحت تناجى الواحد الأحد

إلهى

أنا يتيمة معذبة أرسف فى قيود الرق ، سوف أتحمل كل ألم وأصبر عليه ، ولكن

عذابا أشد من العذاب يؤلم روحى ويفك أوصال نفسى منشأه ريب يدور فى خلدى: هل أنت راض عنى ؟

تلك غايتى

إن اليتم والرق والعذاب وكل المنغصات والمحن لا تساوى عند رابعة العدوية شيئا إذا قورنت بعدم رضا القريب المجيب

* باب الحرية

عاشت رابعة العدوية محنة الرق والعبودية كما يمر شعاع بمستنقع آسن فلا المستنقع يلوث الشعاع ولا الشعاع يطهر ماء المستنقع ، فقد صفت نفس رابعة وصارت صلتها بالسماء أقوى من صلتها بالأرض ، وعلاقتها بالملأ الأعلى أشد وأقوى من روابطها بالبشر

وذات ليلة أصاب الأرق التاجر وخاصم النوم جفنيه وراح يتقلب على فراش الشوك فترامى إلى مسمعه صوت خافت ينبعث من غرفة رابعة فعصفت برأسه رياح الأفكار السوداء والظنون ، هل بلغت بها الجرأة أن تدعو عشيقها إلى داره ؟ هل تئن وتتوجع ؟ لم لا يكون غطيطا ؟

تسلل التاجر كالثعبان حتى وقف بباب رابعة فرآها ساجدة وهى تقول فى صوت حزين يخالطه البكاء :

إلهى

أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك

ونور عينى فى خدمتك

ولكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبادك

انتفض القلب القاسى كالذبيح فى صدر التاجر عندما سمع كلمات رابعة العدوية وهى تصف حبها لله عز وجل فى أسلوب ناصع مبين فيه حلاوة وطلاوة وعذوبة ، كانت كلماتها الباهرة الصافية الآسرة كأنها مسكوبة فى قالب من السحر

وأحس التاجر بزلزال غاضب هائج فى صدره ، ومادت الأرض تحت قدميه عندما رأى موضع سجودها كهيئة ماء المستنقع من دموعها

ووقف التاجر وكأن على رأسه الطير ينظر مرة إلى مستنقع دموعها وهذا السراج الذى تدلى من السماء فجعل حجرتها نهارا ساطعا

وأحس التاجر برعدة الخوف تجتاح كيانه

وعاد يتأمل السراج مبهورا إنه كوكب ساطع

إن هذه الفتاة تتبوأ منزلة عالية رفيعة بين نساء العالمين

إنه يخشاها بعد أن سمعها تصفه بالقسوة والغلظة

هتف التاجر :

ـ يا رابعة

أقبلت رابعة وقالت فى صوت خفيض :

ـ لبيك سيدى

قال التاجر وكأنه يلقى حجرا ثقيلا جثم على صدره طويلا :

ـ قد وهبتك الحرية

لم تصدق رابعة العدوية فنظرت إليه فى عجب فعاد يقول :

ـ نعم وهبتك الحرية فإن شئت بقيت معنا هنا كواحدة من أسرتى ، وإن شئت ذهبت إلى أى مكان تريدين الذهاب إليه

ولم تتردد رابعة وأعربت للتاجر عن اختيارها الحرية

وودعته وانطلقت من السجن الذى فُتح بابه فجأة بعد سجن طويل وعذاب أليم

* المأدبة

جرت الحكمة على لسان رابعة العدوية وأفاض العليم الخبير عليها من ينابيع الإلهام فقد كانت ذات قدرة فائقة خارقة فى حفظ الحديث وعلم التأويل والتفسير حتى صارت فى فترة وجيزة تنافس العلماء والفقهاء فيما يعلمون ويفقهون

بل جعلت تعلم العلماء وتفقه الفقهاء وتبسط الهدايا للمذنبين والحائرين

وصارت رابعة العدوية حديث الناس لافى البصرة وحدها ولا فى أرض الرافدين فقط بل فى كل مكان يتحدث الناس عن ورعها وزهدها وتقواها والزهد والتقوى

وذات يوم قال سفيان الثورى أمير المؤمنين فى الحديث لأحد أصحابه ـ جعفر بن سليمان ـ :

ـ هلم بنا إلى المأدبة

فقال جعفر بن سليمان :

ـ تعنى رابعة العدوية ؟

قال سفيان الثورى :

ـ نعم

فلما دخلا رفع سفيان الثورى يديه وقال :

ـ اللهم إنى أسألك السلامة

فلما سمعت رابعة هذا الدعاء بكت فسألها سفيان الثورى :

ـ ما يبكيك يا رابعة ؟

فقالت رابعة بنت إسماعيل :

ـ أنت السبب لقد عرضتنى للبكاء ، أما علمت يا سفيان أن السلامة من الدنيا ترك

ما فيها ؟ وأنت متلطخ بها ؟

قال سفيان الثورى :

ـ واحزناه

فقالت رابعة العدوية

ـ لا تكذب .. قل : واقلة حزناه ، لو كنت محزونا ما هناك العيش يا سفيان : إنما أنت أيام معدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم فاعمل

ثم قالت :

ـ لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا

قيل لها :

ـ كيف ؟

قالت رابعة العدوية

ـ لأنها تفنى

فسألها رجل من أهل الكوفة :

ـ من أين أتيت ؟

قالت رابعة بنت إسماعيل :

ـ من العالم الآخر

فقال الرجل :

ـ وإلى أين ذاهبة ؟

قالت رابعة العدوية :

ـ إلى العالم الآخر

فتساءل الكوفى :

ـ وماذا تفعلين فى الدنيا ؟

قالت رابعة بنت إسماعيل العدوى :

ـ آكل خبزها وأعمل للآخرة

وسأل رجل رابعة العدوية:

ـ من العاقل ؟

قالت رابعة بنت إسماعيل :

ـ العاقل المصيب من عرف الله تعالى فأطاعه ، وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها

ثم هزت رابعة العدوية رأسها وقالت :

ـ العاقل المصيب من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبرا قبل أن يدخل فيه ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه ثم أردفت :

ـ من هنا كان من الحكمة أن يضع العاقل المصيب حدا لهذه الأمانى المتعلقة بهذه الدنيا الفانية حتى لا يكون مطية لها ، وحتى لا يكون من أهل الشقاء ، أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا

وكان رسول الله ﷺ يقول فى دعائه :

اللهم إنى أعوذ بك من ذنب يمنع خير الآخرة

وأعوذ بك من جياة تمنع خير الممات

وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (رواه البزار عن أنس)

* معلمة العلماء

جعلت رابعة بنت إسماعيل العدوى دارها مدرسة تعلم هؤلاء الأئمة والفقهاء

والعلماء : الحسن البصرى ، سفيان الثورى ، مالك بن دينار ، عبد الواحد بن زيد معروف الكرخى و . . . و . . . غيرهم من العلماء والفقهاء والصالحين فى عصرها

وذات يوم جلست رابعة على شاطىء النهر تتأمل عظمة الله فى هذا النهر ، وإذا بالحسن البصرى أقبل نحوها ثم ألقى بسجادة على صدر النهر ووقف عليها ثم قال :

ـ يا رابعة العدوية تعالى نصلى ركعتين على الماء :

قالت رابعة العدوية :

ـ سيدى : أهى أمور هذه الدنيا ما تريد أن تظهره لأهل الآخرة ؟ أظهر لنا شيئا لا يستطيع جمهور الناس أن يفعلوه

ثم بسطت رابعة العدوية سجادتها فى الهواء وصعدت عليها وصاحت :

ـ تعال يا حسن : نحن هنا فى مكان آمن وأبعد عن عيون الناس

فهل كانت مساجلة بين ولية وولى الله ؟ أم بين عارفة الله وعارف الله ؟

ثم قالت رابعة للحسن :

ـ سيدى : ما فعلت أنت يستطيع السمك أن يفعله ، وما فعلت أنا يستطيع الذباب أن يفعله ، المهم أن نبلغ درجة أعلى من هاتين الدرجتين اللتين بلغناهما

* الرغيفان

زار رابعة بنت إسماعيل العدوى اثنان من العلماء ذات يوم وقت الظهيرة وطلبا إليها أن يتغذيا ، ولم يكن عند رابعة إلا رغيفان فقط وبعض التمر ، فوضعتهما أمامهما ، ثم ذهبت لتأتى بالتمر ، فإذا بسائل يطرق باب دار رابعة تبدو عليه علامة الجوع الشديد

فأخذت رابعة الرغيفين من بين أيديهما وقدمتهما إلى السائل

فتعجب العالمان وكست وجوههما سحب الدهش والاستغراب

ثم رفعت رابعة يديها إلى السماء وقالت :

إلهى

لقد قلت فى محكم كتابك ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [سورة الأنعام الآية ١٦٠] .

وأنا من أجلك أعطيت السائل رغيفين فأعطنى عشرة عن كل واحد

وما كادت رابعة العدوية بنت إسماعيل تنتهى من دعائها هذا حتى دخلت الدار خادمة تحمل عددا من الأرغفة وقدمتها إلى رابعة وقالت لها :

ـ سيدتى فى خدمتك

فأحصت رابعة العدوية الأرغفة فوجدتها ثمانية عشر رغيفا

فقالت للخادم :

ـ ارجعى إلى سيدتك وقولى لها : حدث خطأ فى العدد

فرجعت الخادم إلى سيدتها وأخبرتها ، فلما عدت وأحصت الأرغفة قالت لها:

ـ نعم العدد ناقص رغيفين

ثم أكملت الأرغفة عشرين وبعثت بها إلى رابعة العدوية

ودفع الفضول العالمين فسألاها عن سر ما حدث فأخبرتهما رابعة العدوية

* رابعة العدوية ترفض الزواج من والى البصرة و ..

كانت رابعة العدوية معروفة بين أهل البصرة بأنها زاهدة عابدة انقطعت عن الدنيا وشهواتها فقد ارتفعت بأنوثتها عن مطالب الجسد وتناءت عن أودية الشهوات

ورغم تهافت الخطاب عليها تهافت الفراشات على الضوء فإنها أعربت وأعلنت عن رفضها للزواج ، إنها فى مملكة الحب الإلهى ، سلطانة لها عرش وتاج ، زوارها الملائكة والمؤمنون والعلماء والفقهاء ومريدو العلم ، فهل تستبدل بذلك عرضا زائلا ومتاعا فانيا ودنيا لا بقاء لها ؟

وتقدم أمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمى يرغب الزواج من رابعة

ولكن رابعة العدوية وضعت الدنيا بزينتها وزخرفها ومتاعها تحت قدميها وسمت بغرائزها إلى أفاق تقف دونها النفس البشرية فجلست على عرش الورع وأن حب الله عز وجل ملك عليها فؤادها وملأ صدرها وأصبح شغلها الشاغل ليل نهار

وأحدث رفض رابعة العدوية الزواج من أمير البصر دويا هائلا فى البصرة

وتقدم عبد الواحد بن زيد أحد علماء وزهاد وعباد البصرة إلى رابعة فقالت له:

ـ يا شهاوانى : اطلب شهوانية مثلك أى شىء رأيت فى من آلة الشهوة ؟

كان حب رابعة العدوية لله عز وجل نقلها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام بلغ بها مقام الصديقة والإحسان فأصبح قلبها لا يلتفت إلا لحبيبها عز وجل ولا تتجه بمشاعرها إلى عرض من أعراض الدنيا ، فكيف تترك هذا النعيم الخالد الإلهى وتخرج من الجنة القدسية لتتزوج ، وتصبح امرأة عادية مثل باقى النساء ؟

* أنا أعبد الله لذاته

كان مجلس رابعة بنت إسماعيل تربية للقلوب وإنماء للورع وإرباء للتقوى ، وكان كبار التابعين وصغار الصحابة يلتقون فى بيتها

سألت رابعة أحدهم ذات يوم :

ـ لماذا تعبد الله ؟

فقال :

ـ أعبد الله لأنى أخاف النار

وسألت رابعة آخر :

ـ وأنت : لماذا تعبد الله ؟

فقال :

ـ أعبده خوفا من النار وطمعا فى الجنة

فتنهدت رابعة العدوية وقالت :

ـ ما أسوأ العبد الذى يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار

ثم تساءلت رابعة بنت إسماعيل :

ـ إذا لم يكن ثمة جنة ولا نار أفلا تعبدون الله تعالى ؟

فتبادل الحاضرون نظرات حيرى ثم قالوا :

ـ وأنت : لماذا تعبدين الله عز وجل ؟

قالت رابعة العدوية :

ـ أما أنا فأعبده حبا لذاته ، أفلا يكفينى منه أنه يأمرنى بعبادته ؟

إنها تعبد الله تبارك وتعالى حبا له وشوقا إليه واعترافا بنعمه التى لا تحصى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [سورة النحل الآية : ١٨] .

* من أفقه أهل البصرة ؟

تقول عبدة بنت أبى شوال خادم رابعة :

كانت رابعة كثيرة البكاء قلت لها يوما :

ـ يا سيدتى : عليك بالرجاء وإن عفو الله أعظم من ذنوبك

فقالت رابعة :

ـ أو على ذنوبى أبكى ؟ لو علمت أنى أموت على التوحيد لم أبال بمثل الجبال خطايا

وسئلت رابعة بنت اسماعيل :

ـ ما بال الشيخ على الدنيا أحرص من الشباب ؟

قالت رابعة العدوية :

ـ لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب

ثم قالت عذراء البصرة البتول :

قيل للإسكندر : ما سرور الدنيا ؟

قال :

ـ الرضا بما رزقت منها

فقيل له :

ـ فما غمها ؟

قال الإسكندر :

ـ الحرص عليها

وقيل لرابعة العدوية :

ـ من أفقه أهل البصرة ؟

قالت معلمة العلماء :

ـ أتقاهم لربه عز وجل

ثم أردفت :

ـ إنما الفقيه من يخاف الله تبارك وتعالى

* من أقوال رابعة العدوية :

كانت رابعة تقول :

* اللهم إنى أعوذ بك من كل شيء يشغلنى عنك ، ومن حال يحول بينى وبينك

* محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه

* اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم

* إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم ، إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء فى قلوبكم فتكلتم

*** وفاة رابعة العدوية**

ماتت عذراء البصرة البتول سنة خمس وثلاثين ومائة من الهجرة

ودفنت فى بيت المقدس